درجات المعرفة عند اسبينوزا

الدكتورة سوسان الياس*

الملخص

هَدَفَ هذا البحث إلى دراسة موقف اسبينوزا من طبيعة المعرفة البشرية عبر درجاتها الثلاث (الحسية، والتصورية، والحدسية) ومدى ارتباطها بفكرة الله بوصفه مبدأً أساسياً لنشوء المعرفة الإنسانية وتكوينها بشكل خاص ولنظام الوجود والأشياء بشكل عام.

كما حاول البحث التأكيد أن سيرورة المعرفة المرتبطة بالعقل وحده لتحقيق طموحاته في تحصيل اليقين، تتطلب سعياً حثيثا لإصلاح العقل عبر النظر في أدواته المعرفية وطبيعة الأفكار التي يرتهن العقل إليها؛ لأن قوة الفكر هي قوة العقل في تصوراته. وأن معارف العقل الحقة تكمن في معرفة نظام الطبيعة الشامل.

و يظهر البحث أهمية ارتباط الجانب المعرفي – النظري في فكر اسبينوزا بطرائق الحياة العملية للارتقاء بالإنسان إلى حالة الفعل والتحرر من عبودية الانفعالات وصولاً إلى تحقيق السعادة والفضيلة.

* قسم الفلسفة – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة دمشق

المقدمة

لم تخرج نظرة اسبينوزا إلى الإنسان ومعارفه وأفعاله عن السياق العام لفلسفته الذي جعل فيه من العلية والقانون والضرورة المتحكمة في الطبيعة مفاهيم تميز الوجه الكلي للأشياء، فمع أن الإنسان يشكل "حلقة واعية" بامتلاكه العقل والقدرة على التفكير والفعل ضمن سلسلة العلل الطبيعية التي يحدد بها اسبينوزا نظام الكون، إلا أن أوجه التأثير والانفعال والخضوع التي تطال سلوك الإنسان أكثر بكثير مما يبدو لنا.

ولكن كلما ازداد العقل علماً وفهماً لقواه ولنظام الطبيعة ازداد مقدرة على توجيه نفسه وعلى أن يضع القوانين لذاته، وبقدر ما يزداد فهماً لنظام الطبيعة يتمكن من تحرير نفسه من التأثيرات السلبية فيه. ذلك أن تحصيل المعرفة الحقة ولذة الفهم يتطلب « قبل كل شيء من التفكير في وسيلة لشفاء العقل وتطهيره »[1].

سعى اسبينوزا جاهداً لإصلاح العقل؛ كي يكون المرء واعياً لنفسه، وأن تقترن معرفته لنفسه بمعرفته للإله والأشياء معارضاً بذلك آلية التفكير عند المدرسيين وديكارت الذين « ينطلقون من معرفة الأشياء ويرتقون إلى معرفة الله »[2]، في حين أن الطريق السوي للتفلسف يتأسس على الميتافيزيقا بالنظر في طبيعة الله والأشياء، وهذا ما فعله في كتابه "الأخلاق"؛ إذ بدأ يبحث في طبيعة الله بوصفه مبدأً وحيداً لنظام الوجود ونشوء المعرفة الإنسانية وتكوينها؛ لأن كل شيء في الله، ومن دونه لا يوجد شيء، ومعرفة طبيعة الله الحقيقية هي التي تسمح باتحاد عقل الإنسان المتناهي بعقل الله اللامتناهي، وأن قوة الفكر فينا ما هي إلا قوة الفكر الإلهي الذي يسيّر الكون كله على فكره ونظامه، وقوة الفكر هي قوة العقل في تصوراته التي يتخذ منها اسبينوزا نقطة البدء في مسيرة العقل المعرفية التي يراها على درجات مختلفة يؤكد فيها أن فعل المعرفة هو فعل تفكير

1 – اسبينوزا ، رسالة في إصلاح العقل، ترجمة جلال الدين سعيد، دار الجنوب للنشر، تونس ، 1990، ص 31.

2 – المصدر السابق، ص 19.

مستمر وجهد دائم للارتقاء بأفكارنا من غموضها وعدم كفايتها إلى الأفكار الواضحة بذاتها.

ولتحقيق طموحات العقل في كسب معارفه لا بدَّ من النظر في أدواته المعرفية واتباع الطريق السديد والمنهج القويم، الأمر الذي يضعنا أمام تساؤلات عدة: ما المنهج الحقيقي من وجهة نظر المعرفة بوصفه وسيلة لتطهير العقل لكي يجيد معرفة الأشياء؟ وهل معارفنا على سوية واحدة في تحصيلها أم هي متباينة الأنواع والدرجات؟ وهل من حدود لسلطة التفسير بالعقل ؟ وهل على العقل أن يخضع لحدود رسمها الجهل والمصادفة أو العناية؟

نضع هذه التساؤلات برسم الإجابة عن واحدة من أشهر نظريات اسبينوزا، وهي نظرية درجات المعرفة، والتي عدّها بعضهم« أنها تشكل العمود الفقري للأخلاق كلّها المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بدرجة المعرفة التي نتوصل إليها »[1].

في المنهج السليم لهداية العقل

ينتمي اسبينوزا إلى مرحلة من التفكير الفلسفي الحديث تؤمن بالعقل– وقدراته اللامحدودة على معرفة الأشياء– بوصفه مبدأً للنشاط الفكري والعلمي، بيد أن نجاح العقل في الوصول إلى اليقين والحقيقة يتمثل « في الاعتقاد الراسخ أن التفكير يمكن في الطريقة »[2] والمنهج الذي يعتمده العقل لاكتشاف الحقيقة والبرهنة عليها.

يشير اسبينوزا في كتابه "رسالة في إصلاح العقل" إلى أن منهج التأمل، هو منهج الاختراع الحقيقي الوحيد الذي يَصْلحُ في نظام المعرفة ويقوم على « صوغ الأفكار انطلاقاً من تعريف معطى »[3] يكون بمنزلة مبدأ عام أو قانون كلي قوامه معانٍ بسيطة

1 – جورج زيناتي، الفلسفة في مسارها، الأحوال والأزمنة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2002، ص149 .

2 – فتحي التريكي، رشيدة التريكي، فلسفة الحداثة، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1992، ص 79.

3 – اسبينوزا، رسالة في إصلاح العقل، مصدر سابق، ص 56.

مطابقة لذاتها (لموضوعها) ويعبّر عن ماهية الشيء الداخلية. والبحث عن تعريف كلي يتماهى مع البحث عن العلة التي تكون بها المعرفة العلمية متبعاً بذلك خُطَا الأقدمين ولاسيما أرسطو؛ / حيث المعرفة العلمية عنده تكون بالعلة نفسها/ . ويستعيد اسبينوزا هذا الطرح مؤكداً أن «العلم الصحيح ينهج من العلة إلى المعلولات»[1]، مخالفاً بذلك المنهج الذي يتبعه ديكارت الذي يقوم على " كيفية توقف المعلولات على العلل" بطريقة التضمن (والشمول) أو الاستدلال التي تفرضها قاعدة الوضوح والبساطة. لأن المنهج يقود برأي اسبينوزا إلى "معرفة سلبية للعلة"؛ فنحن لا ندرك شيئاً عن خصائص العلة سوى ما نتأمله في المعلول/ الأشياء/، وهذا ما يرفضه اسبينوزا لعدم كفايته وأن المنهج الصحيح يبيّن أن «معرفة المعلول ليست، في الواقع، شيئاً آخر خلاف اكتساب معرفة أشد كمالاً بالعلة»[2]، والمعرفة بالعلة هي معرفة بالماهية وليس بالأعراض، والطريقة التي تُدرك بها الماهية إنما هي اليقين عينه، واليقين هو امتلاكنا للأفكار الصحيحة المطابقة لماهية الأشياء دون النظر في المقاصد والغايات التي تترتب على معرفتنا للأشياء.

إن متطلبات المنهج القويم إذاً تبدأ بنظر اسبينوزا بتمييز الفكرة الصحيحة عما سواها من الإدراكات وفقاً لقواعد معينة. وتكون الفكرة صحيحة عندما يكون «موضوع الفكرة تابع لقوة تفكيرنا، وليس ثمة موضوع مناسب لها في الطبيعة»[3]، فعلة التفكير الصحيح ليست علة خارجة عن نطاق العقل وطبيعته، فما تتضمنه أية فكرة صحيحة معادل لمفهومها الذي كوناه عن الموضوع. والفكرة الصحيحة فكرة بسيطة «تترك في النفس آثاراً موضوعية مكافئة لماهية موضوعها الصورية»[4] ومعيارها الوضوح والتمييز فلا يكفي الوضوح بنظر اسبينوزا لتقدير ما الذي يجب أن تتصف به الفكرة الصحيحة

1 – المصدر السابق، ص54.

2 – المصدر السابق، ص56.

3 – اسبينوزا، رسالة في إصلاح العقل ، مصدر سابق ، ص 49.

4 – المصدر السابق ، ص56.

والتامة، فالفكرة الواضحة هي الفكرة التي تكون كافية للدلالة على الشيء أو لمعرفته، في حين الفكرة المتميزة هي التي يدرك الذهن مضمونها وعناصرها إدراكاً بيناً. والمتميز هو الذي لا يختلط مع غيره من الأشياء أو الأفكار، والفكرة قد تكون واضحة ولا تكون متميزة، ولكن إذا كانت متميزة كانت واضحة وجوباً، فـ «كلما كانت الفكرة مخصوصة، كانت متميزة، ومن ثَمَّ واضحة»[1]،وفكرة الله التي يبني عليها اسبينوزا ميتافيزيقاه والتي ترتبط بها معارفنا وتسدد خطا العقل في فهمه لحقائق وجود الأشياء ونظام الطبيعة هي أشد الأفكار تميّزاً ووضوحاً إذْ« يمكن للذهن أن يسببها، إذْ إنَّ التحولات البدنية كلّها أو صورة الأشياء يمكن أن تحال إلى فكرة الله» [2]

درجات المعرفة: يصنف اسبينوزا المعرفة، بحسب تدرجها بين البطلان والحقيقة، إلى درجات ثلاث:

الدرجة الأولى / المعرفة الحسية /

يبدأ اسبينوزا في تحديد طبيعة أية معرفة وقدرة النفس /العقل/ على تحصيلها بأن النفس «تكون فاعلة بالضرورة في بعض الأمور بوصفها تملك أفكاراً تامة، وتكون منفعلة بالضرورة في أمور أخرى بوصفها تملك أفكاراً غير تامة»[3]، وفي حالة الانفعال تكون النفس عاجزة عن إدراك طبيعتها وطبيعة الأشياء الخارجية؛ لكونها مقهورة بتأثيرات وعلل خارجية مناقضة لطبيعتها؛ إذ «لا يوجد في الطبيعة أي شيء جزئي دون أن يوجد شيء آخر أكثر منه قدرة وقوة. بل كلما وجد شيء من الأشياء، وجد شيء آخر أقوى منه قادر على تحطيمه»[4] فالقوة التي بها يستمر الإنسان في وجوده ويحافظ بها على

1 – المصدر السابق، ص 58.

2 – برتراند رسل، تاريخ الفلسفة الغربية ، الكتاب الثالث الفلسفة الحديثة، ترجمة محمد فتحي الشنبطي، الهيئة المصرية العامة للكتب ، القاهرة ، ص129 .

3 – اسبينوزا، علم الأخلاق، ترجمة جلال الدين سعيد أولى، دار الجنوب للنشر، تونس، 1995،ص162.

4 – المصدر السابق ، ص262

كيانه تتجاوزها دوماً قوة العلل الخارجية التي لا تتناهى في استعلائها علينا، فإذا كان الإنسان جزءاً من الطبيعة مفتقراً إلى الأجزاء الأخرى كلّها، فأنَّه لا يمكن أن يكون إلا علّة جزئية غير تامة للتغيرات التي تعرض له، والإنسان في حالته الطبيعية هذه مقهور ضرورة بالتأثيرات الخارجية والانفعالات الناجمة عنها. ومن حيث هو كذلك فهو يتبع القاعدة العامة للطبيعة على قدر ما يتطلبها النظام الكلي للأشياء. وفي هذه الحالة تكون النفس مليئة بأفكار غير تامة، وتأثيرات سلبية تكون بمنزلة علامات على عجزنا ومعرفتنا المشوهة.

وحين يتحدث اسبينوزا عن طبيعة معرفتنا على هذا المستوى فإنه بداية وفي "رسالته في إصلاح العقل" يتحدث عن مستوى يشكل فيه الذهن معرفة بالأشياء الجزئية تأتينا بواسطة الحواس، تبدو فيها تلك الأشياء مختلطة لا ترتيب فيها، ترتقي إلى معرفة سماعية* ناجمة عن تأثير الأشياء فينا وهذا التأثير ليس سوى "علامة" أو "دلالة" متغيرة تؤدي بنا إلى تكوين فكرة عن الشيء «مماثلة لتلك التي نتخيل بواسطتها الأشياء»[1]، وهذه المعرفة تكون بالتجربة المبهمة، تحصل لنا بالاتفاق والمصادفة، وهي معرفة ظنية مشكوك بصحتها؛ إذ إننا «لن ندرك بالتجربة المبهمة أبداً غير أعراض الأشياء الطبيعية»[2]، والنفس فيها تكون منفعلة بالضرورة بوصفها تملك أفكاراً غير تامة؛ يؤدي الخيال فيها دوراً واضحاً؛ إذ« ليس للنفس البشرية، من جهة كونها تتخيل جسماً خارجياً، معرفة تامة بهذا الجسم»[3] وأفكارنا عن هذه الأشياء أو الأجسام مختلطة وغير واضحة ومتأثرة بنشاط مخيلتنا التي يكون فيها التخيّل «أشد مادمنا لم نتخيلّ ما يستبعد الوجود

1 – المصدر السابق، ص 139.

2 – اسبينوزا، رسالة إصلاح العقل، مصدر السابق، ص35.

3 – اسبينوزا، علم الأخلاق، مصدر سابق، ص 125.

* – في كتاب "الأخلاق" يصنف اسبينوزا المعرفة إلى ثلاث درجات لأن الدرجتين الحسية والسماعية توحدتا في درجة واحدة.

الحالي للشيء الخارجي»[1]، فالخيال هنا يبدأ بتأكيد موضوعه وحضوره ثم تؤثر فيه أسباب تجعله يستبعد هذا الحضور والوجود للأشياء التي نتخيلها، ولاسيما المعرفة التي تتعلق بشيء في المستقبل، ويدخل في نوع من الشكوك والتردد وينظر إلى موضوعه بعين الإمكان والحدوث تنتفي معه القدرة على إثبات موضوعه الخاص؛ لعدم قدرته على إنتاج مفاهيم عامة وواضحة ومتميزة تتطابق و الأشياء .

والنفس* بنظر اسبينوزا لا تخطئ عندما تتخيّل، بل الخطأ ينشأ عندما «تفتقر إلى فكرة تستبعد وجود الأشياء، التي تتوهمها حاضرة»[2] ، فنحن نعتقد مثلاً بأن الزيت وقود للنار مادمنا لم نصادف في تجربتنا ما يخالف هذه الظاهرة، وعليه فالخطأ ليس «تصور ما لا وجود له ولكن عدم تصور الموجود كله»[3]، فالتخيل ليس عيباً أو نقصاً في النفس ولكن له نتائج سلبية في عدم معرفتنا لأوهامنا وتخيلاتنا الناتجة عن عدم البحث عن أسباب الأشياء ومعرفتها، ولاسيَّما إذا علمنا أن العقل لا يستطيع أن يدرك الأشياء ويفهمها بخلاف ما هي عليه في نظام الطبيعة وقوانينها الناظمة للموجودات، وما يتوهمه العقل في إدراكاته للأشياء وحقيقة وجودها يتعارض والنظام الطبيعي الذي توجد عليه، ومع ذلك فالمعرفة في درجتها الأولى «متجذرة في مسيرة الحياة الإنسانية الموضوعية...، تنتج باستمرار عبر سير الحياة العادي، الذي يقوم على وجه التحديد عبر هذه اللقاءات غير الخاضعة للسيطرة ، مع الخارجي»[4].

---

1 – المصدر السابق، ص269.

* – حديث اسبينوزا عن النفس لا يعني إطلاقا الوقوف على روحانيتها بل على العكس هي مرتبطة بالجسد كنتيجة طبيعية له أو بكلام اسبينوزا "فكرة الجسد "وقوة النفس إنما هي قوة التفكير والفعل معاً.

2 – المصدر السابق، ص 117.

3 – يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة الحديثة، دار القلم، بيروت، لبنان، د– ت، ص 110.

4 – بيار فرنسوا مورو، اسبينوزا والإسبينوزية، ترجمة جورج كتورة، دار الكتاب الجديد، بيروت، 2008، ص93.

ويصور لنا اسبينوزا حال الإنسان على هذا المستوى من المعرفة بأنه إنسان ينقاد لانفعالاته ويعيش تحت سيطرتها، يطلب الأشياء وينفر منها تبعاً للشهوة والكراهية لا لحكمه أنها خير أو شر، هو الإنسان الضعيف المسترق، يفعل سواء أراد أم لم يرد دون أن يعرف ما يفعل، و«همه الأول المجد الزائل والتكريم والغنى المادي...، إنه العبد الحقيقي لجسده ؛ لأن الانفعالات تمارس تأثيرات سلبية في العقل فتمنع النفس من أن تحب ما هو حقيقة حبها»[1]، وهو بعدم اتباعه قواعد العقل يعيش حالة من العجز والتقلب، تسييره أهواؤه ورغباته، وينقاد طوعاً وراء الأشياء الخارجية «التي ترغمه على فعل ما تقتضيه بنية العالم الخارجي، لا ما تقتضيه طبيعته الخاصة»[2]، بخلاف من يهتدي بنور العقل الذي لا يأمرنا بشيء غير ملائم لطبيعتنا.

واسبينوزا لا يتركنا عرضة لتقلبات الأهواء والانفعالات، فنحن نجتهد دوماً في " اصطفاء" ينصب على التأثيرات السلبية نفسها، فيكون لدينا من الانفعالات الفرحة أكثر ما لدينا من الأحزان؛ مما يزيد فعلنا وقدرتنا على التأثير تدريجياً ويحررنا من سطوة الأشياء علينا والتأثيرات الخارجية، وهذا يتم بقوة العقل وحده التي يتصرف بها الإنسان إزاء انفعالاته، وعلى قدر معرفتنا بالانفعال تزداد فاعلية النفس؛ إذ لما كان كل انفعال إنما هو "فكرة لميل من ميول الجسم" وكان منطوياً على شيء مشترك عام أمكن أن يصبح موضوعاً لفكرة تامة، ترتب على ذلك أن أصبح كل انفعال قابلاً لأن يستحيل إلى فكرة واضحة ومتميزة، فبقدر معرفتنا لأنفسنا معرفة مطردة في وضوحها نستطيع أن نقلل من شأن الانفعالات والأوهام الناجمة عنها، فـ «قدرة الفكر على التوهم، تكون أعظم بقدر ما يكون فهمه للأشياء أقل وإدراكه الحسي لها أكثر، وتكون قدرته أقل بقدر ما يزداد فهمه للأشياء»[3]، وهذا ما نجهد في السعي إليه، بحيث تستحيل أفكارنا غير التامة إلى

1 – جورج زيناتي، الفلسفة في مسارها، مرجع سابق، ص 149.
2 – اسبينوزا، علم الأخلاق، مصدر سابق، ص 298.
3 – اسبينوزا، رسالة إصلاح العقل، مصدر سابق، ص 44.
– اسبينوزا، علم الأخلاق، مصدر سابق، ص 379

أفكار تامة. فتتحول النفس عن الشيء الذي تنفعل به إلى الشيء نفسه الذي ينبغي أن تُعمل الفكر فيه بحيث تدركه في وضوح وتمييز. وهنا تدخل النفس في مستوى جديد للمعرفة ترتفع فيه إلى تشكيل أفكار عامة ومفاهيم مشتركة أو ما يعرف عند اسبينوزا "بالأفكار التامة".

الدرجة الثانية: المعرفة التصورية

يتعين على النفس (الذات) التي تريد أن تتخلص من الإبهام والغموض الذي يرافق معرفتنا الحسية، أن تعمل على تجاوز نطاق الجزئي وأن تسمو إلى آفاق الكلي والعام، وهذا يتم لها بواسطة المعرفة بالعقل، على أن الوصول إلى الكلي والعام إنما يكون بطريقتين: طريقة الاستدلال أو التعميم غير المباشر الذي يتخذ نقطة بدئه من معاينة الواقع المباشر «فعيون النفس التي ترى بها الأشياء وتعاينها، إنما هي الاستدلالات ذاتها»[2] وطريقة الحدس أو المعرفة المباشرة.

والمعرفة العقلية بالاستدلال تنشأ نتيجة وجود معانٍ مشتركة في الذهن بين الناس جميعاً وأفكار تامة عن الخصائص النوعية للأشياء. والسؤال الذي يطرح نفسه: ما طبيعة العقل هنا؟ وكيف نتوصل إلى تشكيل مفاهيم عامة مشتركة نحن الذين محكوم علينا بالأفكار غير التامة وبالانفعالات؟

يرى اسبينوزا أن "الإنسان يفكر" مسألة بديهية وواضحة بذاتها، لكن ليس بوصفه جوهراً مفكراً ماهيته الوحيدة في أنه يفكر على طريقة ديكارت، فكل ما ندركه في حالة الفكر ليس سوى حالات تفكير معينة؛ أي أفكار معينة، ولا نلاحظ شيئاً مفكراً متمايزاً عن جسمي يقوم بعملية التفكير، وما الإنسان إلا هيئة من هيئات الجوهر الواحد، وإذا كان الجوهر له محمولان: الامتداد والفكر، فإن الإنسان «اتحاد محمولين منفصلين لجوهر واحد»[1]، ويذهب اسبينوزا أبعد من ذلك ليعلن: « أن النفس البشرية هي فكرة

1 – ريتشارد شاخت، رواد الفلسفة الحديثة، ترجمة أحمد حمدي محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1993، ص115.

موضوعها الجسم»[1]، والفكرة تدرك كل ما يحصل في موضوعها؛ أي الجسم، ولما كان الجسم بالغ التعقيد والتركيب فإن فكرته أيضاً شديدة التعقيد أو كما يقول اسبينوزا: «ليست الفكرة المؤلفة للكيان الصوري للنفس البشرية بسيطة، بل هي مركبة من عدد كبير جداً من الأفكار»[2]، ونظام ترابطها هو عينه نظام الأشياء وترابطها، إذ تنتظم الأفكار تبعاً لتسلسل طبيعي / وهذا ما يعرف بالتأثير السلبي للعقل حالة الانفعال/ غير أن العقل فعال من جهة انتظام أفكاره الجزئية في تسلسل منطقي وفقاً لقوانينه العامة، وقدرته على التحرر من التأثيرات الخارجية التي تعكسها التصورات المستندة إلى مدركاتنا الحسية. واتصاف العقل بالفاعلية يرتقي به إلى مستوى جديد من المعرفة يصفها اسبينوزا بالمعرفة العقلية التي تنشأ من «كوننا نملك معانيَ مشتركةً وأفكاراً تامةً عن خاصيات الأشياء وسأسمي نمط المعرفة هذه العقل»[3] التي نصل من خلالها إلى الامتلاك الصوري لقوة فعلنا .

وإذا كان نشاط العقل وتأثيره يكمن في تشكيل المعاني العامة المشتركة فالسؤال يبقى حاضراً: كيف نتوصل إلى تكوين تلك الأفكار والمعاني العامة المشتركة؟

يتأثر الجسم الإنساني بالعالم الخارجي بطرائق كثيرة ومتعددة جداً، تحدث فينا تأثيرات وانفعالات ينجم عنها أفكار موائمة لها، ومن أفكارنا عن تأثيرات الأجسام الخارجية التي لا نملك بعد فيها فكرة تامة عن أنفسنا ولا عن الأشياء الخارجية يدرك الذهن أن ثمة خصائص مشتركة بين جسمي والأجسام أو الأشياء الأخرى يقابلها « عدد معين من المفاهيم المشتركة التي تتوافق في الفكر، مع ماهذه الخصائص المشتركة في الامتداد»[4] ، وهي أفكار أقل عمومية تشير إلى تماثل في التركيب بين أجسام تتوافق

1 – اسبينوزا ، علم الأخلاق، مصدر سابق ص 102

2 - المصدر السابق،ص 112.

3 – المصدر السابق ، ص139.

4 – بيار فرنسوا مورو، اسبينوزا والاسبينوزية، مرجع سابق ،ص93.

مباشرة ولا تتوقف على الاتفاقات الحاصلة بين الأجسام بالمصادفة، بل تمتلك سبباً داخلياً وضرورياً لتناسب الأجسام[1]، ويميزها اسبينوزا عن أفكار عامة كلية تعكس ما هو مشترك بين الأجسام كلّها، كالامتداد والحركة والصورة ...؛ أي تعكس ذلك التشابه العام الذي يفصح عن صفات مشتركة وضرورية بين الأشياء، تمكننا من الكشف عن الأسباب الداخلية والضرورية لأوجه الشبه والتماثل بينها، نقيم بناءً عليها أفكارنا العامة التي تطال بُنى تلك الأشياء وليس أشكالها ووظائفها؛ ذلك « أن لا أحد عرف حتى الآن بنية الجسم إلى حد يفسر معه وظائفها كلّها»[2]، وكون المفاهيم المشتركة أفكاراً عامة لأشياء متشابهة في التركيب، فهي مطابقة بالضرورة وتفسر حقائق الأشياء، وهي موجودة فينا كما هي في الله، بمعنى أن الذهن يكونها كما هي متصورة في الله.

وطريقة اسبينوزا في تفسيره لتشكيل مفاهيمنا العامة تسير في اتجاهين : أ– يُنظر إليها من جهة أنها تفسر صورياً بقوة فعلنا وجهد عقلنا الذي يتوقف على ذواتنا وهذا هو الجانب النظري : أي ينظر إليها اسبينوزا من وجهة نظر تأملية خالصة يرتبها منطقياً من أكثرها كلية إلى أقلها؛ أي «تلك التي تنطبق على أجسام بعيدة جداً عن بعضها بعضاً ومتضادة»[3]، وهذا ما أفصح عنه كتابه الثاني في الأخلاق، والسبيل الآخر لتشكيل مفهوم عام مشترك ينشأ عن التأثيرات الفرحة التي تتوافق مع طبيعتنا في علاقتها مع الأجسام الأخرى، فتؤدي بنا إلى مفاهيم عامة مشتركة، بخلاف التأثيرات السلبية التي تكون سيئة بقدر ما هي مضادة لطبيعتنا؛ يقول اسبينوزا: «فما دامت لم تقهرنا انفعالات مناقضة لطبيعتنا، كانت قوة النفس، التي تدأب بها عن المعرفة، من دون عائق، وكانت لها القدرة على تكوين أفكار واضحة ومميزة وعلى استنباط بعضها من بعض»[4]، وطبقاً

1 – انظر: جيل دولوز: اسبينوزا ومشكلة التعبير، ترجمة أنطون حمصي، مراجعة محمد صبح، ط1، أطلس للنشر والتوزيع، دمشق 2004 ، ص229.
2 – اسبينوزا، علم الأخلاق، مصدر سابق، ص 138.
3 – جيل دولوز، مرجع سابق ص 234.
4 – اسبينوزا، علم الأخلاق، مصدر سابق ص 366.

للعقل. وسيرورة تشكيل المفاهيم العامة في هذا الجزء الخامس تنطلق من المفاهيم الأقل كلية – أي تلك التي تثير في نفسي انفعالاً فرحاً نتيجة توافقها مع حالة جسمي الخاص مع بعض الأجسام الأخرى– إلى مفاهيم أكثر كلية تشمل الحالات كلّها، بما فيها الأجسام المضادة لنا، وهنا نصبح «قادرين على أن نفهم حتى أحزاننا وعلى أن نستخلص من هذا الفهم فرحاً فعالاً»[1] . ب– ينظر إليها اسبينوزا من جهة وظيفتها: وهنا يبرز الطابع العملي للمفاهيم المشتركة واضحاً ، فالقدرة على خفض أحزاننا وإشاعة الفرح في نفوسنا تشكل فرصةً أولى لتشكيل مفاهيم عامة عن طريق "اصطفاء" انفعالات لا تتوافق وطبيعتنا الخاصة، إلى مفاهيم أكثر كلية نفهم بموجبها التباينات والمضايفات ذاتها، هنا ينتقل اسبينوزا خلسة من الوظيفة التأملية ذات الطابع المنطقي إلى الوظيفة العملية دون تبرير كافٍ.

وسواء نظرنا إلى مفاهيمنا المشتركة العامة من الجانب العملي أو التأملي فإنها تقودنا لتعرّف نظام الطبيعة والأشياء واكتشاف علاقاتها المميزة لها والقوانين الناظمة لحركتها التي هي قوانين الطبيعة الإلهية. والعقل على مستوى المعرفة بالنوع الثاني يرينا الأشياء بعين الوجوب والضرورة؛ لأن «من طبيعة العقل أن يتأمل الأشياء لا من حيث هي عرضية، بل من حيث هي ضرورية»[2]، بخلاف الحواس والمخيلة، فهي تُرينا الأشياء بعين الحدوث والإمكان، وهذه العين من شأنها أن تلبس الأشياء صورة الحق والصدق، وإننا بفضل أفكار العقل ومعانيه نزداد معرفة بطبيعة الله ، فكل معرفة تعبر عن الله تمر عبر معانينا المشتركة وأفكارنا العامة ، ويضيف اسبينوزا أنَّ تلك المعاني المشتركة والمفاهيم العامة تعطينا معرفة بنظام الطبيعة والقوانين الكلية وتفسر تأثيرات

1 – جيل دولوز، اسبينوزا ومشكلة التعبير، مرجع سابق، ص 239.

2 – برتراند رسل، حكمة الغرب (الجزء الثالث) الفلسفة الحديثة والمعاصرة، ترجمة فؤاد زكريا، عالم المعرفة، الكويت 1983، ص82.

الأجسام والتناسب العام بينها، «ولا تفسر ماهية أي شيء جزئي»[1]، فطبيعة أي شيء جزئي موجود، تنطوي بالضرورة على ماهية الله الأزلية اللامتناهية لا بوصفه كياناً جزئياً منفصلاً بل بوصفه مرتبطاً بالكون على أنه وحدة جوهرية حاصلة بذاتها على علمه ووجودها هو عين ذات الله. وهذا ما تدركه النفس /العقل/ برؤية حدسية خالصة.

وسواء أدركنا الأشياء بجزئياتها أم نظرنا إليها بعين الكلية والعمومية؛ فإن أفكارنا عنها تنطوي على ماهية الله، لأن كل «ما يقيم معرفة بماهية الله الأزلية اللامتناهية، إنما مشترك بين الأشياء جميعها، كما أنه موجود في الكل والجزء على حد سواء»[2] والمعرفة به تامة وكاملة. ويستبعد اسبينوزا أي علاقة للعقل بالإرادة الحرة؛ إذ يعدهما شيئاً واحداً فما نريده هو ما نتعقله وفقاً لضرورة العقل ومبادئه، وأي حديث عن إرادة حرة مطلقة للنفس/ كما ذهب ديكارت / هو جهل بطبيعة النفس ذاتها التي يرى أنها «حال معين ومحدد من أحوال الفكر، ومن ثَمَّ فإنه يتعذر عليها أن تكون علة حرة»[3]، وينظر إليها على أنها ملكة للإثبات والنفي لا للرغبة، شأنها في ذلك شأن الفكرة بما هي فكرة.

والمعرفة بالعقل هي التي تقود إلى المعرفة الصحيحة لتضمنها أفكاراً تامة Adequate Ideas* وللفكرة التامة في نسق اسبينوزا الفلسفي مكانة مميزة، فالقاعدة الأساسية التي تحكم فكره ومنطقه هي تلك التي يعمل بها الإنسان على تحويل أفكاره غير التامة /الملتبسة/ إلى أفكار تامة، وهذه الأفكار ليست فقط فعل العقل وقدرته في تصوراته، بل هي معيار الحقيقة؛ كونها واضحة ومتميزة، والفكرة التامة هي الفكرة الصحيحة، والفكرة تكون صحيحة ليس بوصفها تتفق مع موضوعها فالاتفاق أو التطابق يفترض "علامة خارجية" أو علة خارجية عن طبيعة الفكرة ذاتها؛ إذ «من يعلم علم

1 – اسبينوزا، علم الأخلاق، مصدر سابق، ص 145.

2 – المصدر السابق، ص 147.

3 – المصدر السابق ، ص 149 .

اليقين أن لدينا أفكاراً تتفق مع موضوعاتها؟»[1] تمكننا من كشف التباين بين زيف الفكرة وصحتها، فالفكرة وموضوعها شيء واحد، وهذا ما يفصح عنه تعريف اسبينوزا للفكرة التامة بأنها « الفكرة التي إذا ما اعتبرت في ذاتها، وبقطع النظر عن موضوع ما، تملك الخصائص أو العلاقات الباطنية كلّها المميزة للفكرة الصحيحة »[2] ، فما تتضمنه أية فكرة تامة (صحيحة) معادل لمفهومها الذي كوناه عن الموضوع، وهو مضمون منطقي تعبر فيه الفكرة التامة عن علتها الذاتية؛ العلة التي تبيّن لماذا يكون الشيء بالضرورة على ما هو عليه، وذلك بإدراك حقيقته من خلال علاقته بشيء آخر، وعليه فالفكرة تكون صحيحة عموماً كلما امتلكنا معرفة أكثر بالأشياء ضمن نظام الطبيعة وقوانينها ورُبِطَتْ بفكرة الكائن الأكمل وربط الفكر بالجانب العملي لحياتنا، وهذا يؤدي بنا حتماً إلى معرفة بذات الأشياء وبالله، معرفة لا تتأتى لنا إلا عبر المفاهيم العامة (المشتركة). صحيح أن الأشياء والذوات تتوقف على الله على أنه جوهر لا متناه، إلا أن معرفتنا بحقيقة هذا الجوهر اللامتناهي، بوصفه مصدراً للعلاقات كلّها المكونة للأشياء، متوقفة على تلك المفاهيم العامة، لأن «ما يقيم معرفة بماهية الله الأزلية اللامتناهية، إنما هو مشترك بين الأشياء جميعها»[3]؛ أي تلك المفاهيم العامة التي تعطينا بالضرورة معرفة بالله، والسؤال هل فكرة الله هي من ضمن المفاهيم العامة المشتركة؟

معروف أن فكرة الله لها دور محوري في كتاب "الأخلاق"، « فكل شيء يدور حولها، كل شيء يتغير معها»[4] ، غير أن فكرة الله ليست هي نفسها، مفهوم أو أنها

1 – المصدر السابق ، ص 142.

2 – اسبينوزا. علم الأخلاق، مصدر سابق ، ص86.

* – يحاول بعضهم أن يترجم Adequate Idea بالفكرة الكافية، وهذا شأن فؤاد زكريا في كتابه " اسبينوزا والتفكير العلمي" مبرراً ذلك بأن الفكرة الكافية ليست كياناً مجرداً يطابق موضوعاً أو يتفق معه أو يصدق عليه، وإنما هي ذاتها ذلك الموضوع ... راجع زكريا ، ص 69

3 – المصدر السابق،ص147.

4– جيل دولوز. اسبينوزا ومشكلة التعبير، مرجع سابق، ص 250.

أكثر المفاهيم كلية وعمومية، مع أن كل مفهوم عام يقودنا إليها، ومعرفتنا في مستواها الثاني تدفعنا نحو تشكيل معارفنا الخاصة بالنوع الثالث للمعرفة «لا يمكن للجهد أو الرغبة في معرفة الأشياء بواسطة النوع الثالث المعرفة أن ينشأ من النوع الأول من المعرفة، بل هو ينشأ عن النوع الثاني»[1] . فنحن لا نستطيع بلوغ فكرة الله إلا بالنوع الثاني للمعرفة (التصورية) ولكن فكرة الله ذاتها تلزمنا بالخروج منه نحو النوع الثالث للمعرفة (الحدسية) حيث يكون لها مدلول ومضمون جديدان تتجاوز فيه خاصية المفاهيم العامة /المشتركة/ التي تنطبق على بعض الموجودات وتظهرنا على أوجه الاختلاف والتشابه في العلاقات الناظمة لتلك الموجودات؛ أي النظر إلى المفهوم (كالامتداد، والحركة، والسكون...) كصفة مشتركة؛ توافق الأجسام كلها الموجودة من وجهة نظر الطبيعة ككل، نقول تتجاوزها إلى حيث تدخلنا في مجال «الكائنات الواقعية ...، فلن تعود الصفة تفهم بوصفها خاصة مشتركة بين الأنماط الموجودة كلّها التي تتناسب معها فقط، بل أيضاً بوصفها ما يكوّن الذات الفريدة للجوهر الإلهي، وبوصفها ما يتضمن كل الذوات الخاصة للأنماط»[2]. ففكرة الله هي حاضرة فينا أبداً منذ البداية لكننا لا ندركها، ولكن ما تقدمه معارفنا من النوع الثاني توصلنا إلى فكرة الله كمبدأ كلي نستخلص منه الماهيات الفردية التي تحيي هذا المبدأ، وهذا ما ندركه برؤية مباشرة (حدسية) في النوع الثالث للمعرفة .

الدرجة الثالثة / المعرفة الحدسية/

يعرّف اسبينوزا هذه الدرجة من المعرفة بأن العقل فيها «يرتقي من الفكرة التامة للماهية الصورية لبعض الصفات الإلهية إلى المعرفة التامة لماهية الأشياء»[3] ، وفيها تصل النفس إلى كمال معرفتها، إذ ترى برؤية مباشرة في كل جسم الامتداد الإلهي،

1– اسبينوزا، علم الأخلاق، مصدر سابق ، ص381 .

2– جيل دولوز، اسبينوزا ومشكلة التعبير، مرجع سابق، ص251.

3– اسبينوزا، علم الأخلاق، مصدر سابق ، ص139.

وترى في كل فكرة الفكر الإلهي، وترى في كل صفة من الصفات الجوهر اللامتناهي الذي هو عين ذات الله، وهي إذ تتأمل في الجوهر اللامتناهي تمتزج معرفتها بمعرفة العقل اللامتناهي وهو عقل الله ذاته والنفس الإنسانية على هذا المستوى من المعرفة؛ إذ تتخذ موضوع معرفتها من جوهر الله أو ذاته تستطيع أن تسمو وتصل إلى «إدراك الأشياء في علاقاتها الأبدية»[1]. لأن الشيء الذي تتأثر به وتؤثر فيه، وهو موضوع فعلها وانفعالها، إنما يعبر عن ذات الله؛ ومن هنا تأكيد اسبينوزا بأن تصور الأشياء على أنها أزلية إنما هو تصور لها في صلتها بالله فما نفهمه ونتصوره بذواتنا، بعد أن نتسامى عما هو جزئي وعرضي وحادث، يتم ضمن نوعٍ من الأزلية، فلا يكون هناك علة لتصوراتنا سوى قوة فعلنا أو قوة فهمنا، أي قوة تفكير الله نفسه كما هي معبر عنها بذاتنا الخاصة؛ يقول اسبينوزا: «إن النفس بوصفها تعرف ذاتها، وتعرف الجسم من منظور الأزل، تعرف الله بالضرورة وتعلم أنها موجودة في الله وتتصور به»[2]، فما كنا نتصوره في الموضوعات أنه يتوقف على الله، فإنه على هذا المستوى من المعرفة يتم فهم تلك الموضوعات (من حيث الماهية والوجود) في تبعيتها الخاصة للذات الإلهية اللامتناهية في توافق فريد ومطلق، فمعارفنا عن الأشياء المحصلة بنوع المعرفة الثاني كانت محكومة بأفكار نستدل بواسطتها على حقيقة الأشياء وماهيتها من خلال علاقتها بالأشياء الأخرى؛ أي بالانتقال من المعلول إلى العلة، وعندها لا تكون الأفكار تامة إلا «لأنها في الجزء كما هي في الكل، ولأنها فينا، في ذهننا، كما هي في أفكار الأشياء الأخرى»[3] ، وفيها نقف على الخصائص المشتركة للأشياء منظوراً إليها من خلال

1- زكي نجيب محمود، قصة الفلسفة الحديثة ،لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1936، ص 146.

2 - اسبينوزا، علم الأخلاق، مصدر سابق ، ص383.

3- جيل دولوز، اسبينوزا ومشكلة التعبير، مرجع سابق، ص 255.

* -الطبيعة الإلهية عند اسبينوزا تعبر عن النظام العام والكلي لوحدة الأشياء في الطبيعة كونه أحال الوجود إلى جوهر لامتناهٍ يصور الكون على أنه طبيعة طابعة وطبيعة مطبوعة كوجهين للجوهر اللامتناهي راجع الكتاب الأول في الأخلاق " عن الله".

علاقاتها العامة المستنبطة من النظام العام للأشياء، لكون تلك الأشياء مشاركة في ذلك النظام، صحيح أن ما يحدد نمط وجود الأشياء الجزئية هي شكل التأثيرات المتبادلة بين تلك الأشياء، إلا أن «القوة التي يستمر بموجبها كل شيء في الوجود تنتج عن الوجوب الأزلي لطبيعة* الله»[1]، وهذا ما ندركه في المستوى الثالث لمعرفتنا التي نصل فيها إلى معرفة مباشرة (حدسية) بالأشياء عن طريق ماهياتها الخاصة، حيث يكون العقل فيها أفكاراً مطابقة عن أنفسنا وعن الأشياء كما هي في الله وكما يتصورها الله؛ لأن الحقيقة كما يراها اسبينوزا:« تقوم في صفة ذاتية للمعنى نفسه لا في المطابقة مع موضوع خارجي»[2] وقوامها معانٍ بسيطة مطابقة لذاتها، يكونها العقل بذاته، وتعبر عن طبيعة الشيء الداخلية؛ يعني أن الأمر هنا يتعلق بأشياء جزئية تُدْرَكُ ماهياتها برؤية حدسية خالصة.

غير أن التمايز بين نوعي المعرفة الثاني والثالث لا يعني وجود قطيعة بينهما، فالرغبة والجهد في معرفة الأشياء بنوع المعرفة الثالث لا تنشأ عن النوع الأول من المعرفة بل تنشأ عن النوع الثاني بحيث تبدو "تكملة وتتويجاً لها"، فمع أنها حدسية فهي «معرفة عن طريق العقل لتلك الحقائق الأزلية التي تتكشف لنا في أعلى مراحل تأملنا الفلسفي»[3].

إذاً كما هو واضح فإن معارفنا التامة بجوهر الله ذاته وذات الأشياء المتصورة به التي ندركها بطريقة مباشرة هي حصيلة جهد تقوم به الذات في وجودها الفعلي، تنتقل فيه من حالة التأثيرات السلبية الناتجة عن أفكارنا غير الواضحة وغير التامة إلى حالة الفعل والتأثير لتوليد أفكار تامة تزيد من قدرتنا على إنتاج أفراح فعالة وحب فعّال من

1– اسبينوزا، علم الأخلاق، مصدر سابق، ص147

2– يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، مرجع سابق، ص 109.

3– فؤاد زكريا. اسبينوزا والتفكير العلمي، سلسلة الفكر المعاصر، ط2، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، 1981، ص 72.

نوع المعرفة الثالث، جهدٌ لن تصل فيه معارفنا إطلاقاً إلى القضاء على التأثيرات والانفعالات وما ينجم عنها من أفكار غير تامة، «إلا أنها لا تتركها تحتل أكثر من جزء ضئيل من النفس»[1]، وآية ذلك وجودنا في "الديمومة" كنفس وجسم: فالجسم كوجودٍ فعلي فهو ممتد في الزمان ومتأثر فعلاً من الخارج بعلاقاته مع الأجسام الأخرى، والنفس تحوز أجزاءً امتدادية «كونها تنطوي على الوجود الفعلي للجسم... في الديمومة»[2]، وبوصفها فكرة الجسم الموجود فهي قوة فعالة تدركه ضمن صورة الأزلية.

ويميز اسبينوزا بين الديمومة والأزلية من جهة النفس؛ فالنفس تدوم في الزمان مادامت تعبر عن الوجود الفعلي للجسم، فلا ننسب الديمومة إلى النفس إلا عندما يدوم الجسم الموجود فهي لا تتصور أي جسم إلا في أثناء مدة جسمها، وتبقى أزلية من حيث إنَّها قوة فهم، فكرة تعبر عن ذات الجسم «إن كل ما تفهمه النفس من منظور الأزل، لا تفهمه لكونها تتصور الوجود الفعلي الحاضر للجسم، وإنما تتصور ماهية الجسم من منظور الأزل»[3]، فيكفي أن نكوّن فكرة واضحة عن طبيعة أنفسنا، كما هي في الله، وهذه الفكرة تعبر عن ذات الجسم وماهيته حتى نختبر أننا أزليون، وهذه الخبرة تنتمي ضرورة إلى النوع الثالث من المعرفة، وفيه يتمكن «الذهن من أن يصل إلى ذلك الحدس الذي يجعله يدرك قانونية العالم وضرورة الظواهر الطبيعية...وعندئذٍ يكون ذلك الحدس ذاته هو أوضح مظاهر الأزلية في ذهنه»[4] .

إن تفسير اسبينوزا لأزلية النفس لا يعني إطلاقاً الحديث عن خلودها؛ بمعنى انفصالها عن البدن ودوام وجودها عندما لا يعود البدن يدوم، هذا يكشف عنه الوحي، أمَّا أزلية النفس فهي قدرتها على تصور ماهية الأشياء كما هي متصورة في الله بضرب

1 – اسبينوزا، علم الأخلاق، مصدر سابق ، ص376.

2– المصدر نفسه، ص 379.

3– اسبينوزا، علم الأخلاق، مصدر سابق ، ص382.

4– فؤاد زكريا. اسبينوزا... مرجع سابق ص 160.

من الضرورة وتتوقف على مدى ما فيها من معارف للكشف عن النظام الضروري للأشياء، وبهذا تكون النفس أقرب للأزلية، فلا يقال عن النفس (الذهن) أنه أزلي، إلا لأن «هناك في الله فكرة تعبر عن ماهية هذا البدن أو ذاك تحت صورة السرمدية، وهذه الفكرة هي الجزء السرمدي في الذهن»[1] .

وإذا ما كانت المعرفة المبنية على العقل وحده، بجانبه التصوري أو الحدسي، لا تهدف فقط للانتقال بالإنسان من مستوى الجهل إلى المعرفة الحقة بطبائع الأشياء، بل تتعداه إلى تصويب حياتنا الانفعالية والعاطفية، فإن امتلاك الإنسان لتلك الحقائق الأزلية ينشأ عنه أعظم انبساط يمكن أن تعرفه النفس، فتتملكه انفعالات إيجابية تنتج فرحاً حقيقياً فعالاً ينجم عن الشعور بالمشاركة في الطبيعة بأسرها، يكون مصحوباً بحب عقلي لله، فـ« الأفراح التي تلي أفكار الجنس الثالث هي، وحدها ، التي تستحق اسم الغبطة: لم تعد أفراحاً تزيد قوة فعلنا ولا حتى أفراحاً تفترض أيضاً مثل هذه الزيادة، بل هي أفراح تشتق بصورة مطلقة من ذاتنا كما هي في الله وكما يتصورها الله»[2]، والحب العقلي النابع من الذات الإنسانية إلى الذات الإلهية إنما يصدر عن الحب العقلي الفائض من ذات الله لذاته، ولأن حب الإنسان لله إنما هو جزء من عين حب الله اللامتناهي لكماله اللامتناهي فإن «حب الله للبشر وحب النفس العقلي لله هما شيء واحد»[3] .

وفي هذا كله – بنظر اسبينوزا – يكمن الدرب الموصلة إلى السعادة والفضيلة، وفيهما يكون خلاص الإنسان وحريته، فالإنسان الذي يحيا على مقتضى العقل، يكون بمنجاة من القلق والخوف ولا يتفكر في شيء أقل مما يتفكر في الموت؛ لأنه لا يتفكر إلا في أن يحيا وأن يعمل وأن يحافظ على وجوده. فتغدو الأشياء الخارجية خيّرة أو

1– برتراند رسل، تاريخ الفلسفة الغربية، الكتاب الثالث الفلسفة الحديثة، ترجمة محمد فتحي الشنيطي، الهيئة المصرية العامة للكتب، القاهرة، 1977، ص131.

2 – جيل دولوز، اسبينوزا ومشكلة التعبير، مرجع سابق، ص 257 – 258.

3– اسبينوزا، علم الأخلاق، مصدر سابق ، ص389.

شريرة لا لذاتها، وإنما بالنسبة إلينا؛ «فالموضوعات لا تكون شريرة أو خيّرة إلا بسبب العقل؛ لأنها تستمد قيمتها منه»[1]. وهنا يجد الإنسان فرحه الأصيل والحقيقي وتجاوزه لمرحلة العبودية وسطوة الانفعالات، فما يطمح إليه العقل وما تصبو إليه النفس لا يعدو ما يلائم النظام الضروري للأشياء، وهذا ما تعنيه عبارة اسبينوزا أن «أفضل جزء فينا ينبغي أن يكون موافقاً لنظام الطبيعة الكلية»[2] ،

والحقيقة أن حديث اسبينوزا عن المعرفة بالحدس أشاع تأويلات متعددة ومتضاربة بأن الحدس قد يؤدي معنى الصوفية*بحجة أنه مرحلة أعلى من العقل أو تجاوزاً له. ولكن اسبينوزا يتحدث عن شبه قطيعة بين نوعي المعرفة الثاني والثالث وبين النوع الأول من المعرفة، وأن الفرق بين مستوى المعرفة الثاني والثالث يتأتى من سيرورة عمل العقل في إدراكه للمبدأ الأول للوجود، وهو الجوهر الواحد: قوانين كلية في حالة النوع الثاني، واستنتاج ماهية الأشياء من فكرة الله ذاته في النوع الثالث للمعرفة الذي يكون العقل فيه أكثر وضوحاً وتمييزاً في أفكاره، ويبقى الاختلاف بينهما «في الموضوعات لا في درجة اليقين»[3].

خاتمة:

أخيراً يمكننا القول: إن تفسيرات اسبينوزا لطبيعة المعرفة الإنسانية بمستوياتها الثلاثة، مرتبطة ضرورة بالبحث عن قواعد ناظمة لعمل العقل وهدايته؛ لكي يجيد معرفة

1- جوازيا رويس، روح الفلسفة الحديثة، ترجمة أحمد الأنصاري، مراجعة حسن حنفي، ط2، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2009، ص 11.

2- اسبينوزا، علم الأخلاق، مصدر سابق ، ص352.

*- يستفيض فؤاد زكريا في كتابه" اسبينوزا..." بسرد وجهات نظر دارسي فلسفة اسبينوزا وشرّاحها ممن نعتوا تفكيره بالصوفية ولاسيَّما مرحلة التفكير الحدسي التي أنهى بها درجات المعرفة الإنسانية، متناولاً إياها بالنقد والدحض انظر : فؤاد زكريا ،اسبينوزا والتفكير العلمي.

3- بيار فرنسوا مورو، اسبينوزا والاسبينوزية، مرجع سابق،ص124.

الأشياء ويرتقي بتصوراته وأفكاره من حالة الغموض وعدم الكفاية إلى حالة الوضوح للاهتداء إلى المعرفة الحقة.

– من هنا فإن تمييزه بين ضروب المعرفة (الحسية – والتصورية – والحدسية) تأكيد واضح بأن المعرفة الناتجة عن تأثيرات العالم الخارجي (المعرفة بالتجربة) التي هي "علامة" تدل على الموضوع وتعرفنا به انطلاقاً من أثره، هي إدراكات مبهمة وليست ضروب فهم.

– في حين أن المعرفة الصحيحة والحقة هي معرفة العقل للنظام الشامل للطبيعة، وأننا جزء من هذه الطبيعة، وأن فاعلية العقل تكون بامتلاكه أفكاراً مطابقة للموجودات على المستوى التصوري الاستدلالي، ولكن بقدر ما تتطور معارف العقل يقترب من فكرة الله كمبدأ للعقلانية ولكلية قوانين الطبيعة، وبها يكون كمال المعرفة الإنسانية من جهة امتلاكها للحقائق الأزلية المتصورة من ذات الله.

– ولما كانت درجات المعرفة هي طرائق حياة و أنماط وجود يرتبط فيها العملي بالنظري فإن ارتقاء معارفنا يشيع في النفس حالة فرحٍ ترتبط بالانتقال من الانفعال إلى حالة الفعل بما يتناسب و طبيعتنا، فنتجاوز عبوديتنا ونشعر بحريتنا وتملأ أنفسنا غبطة حقيقية نردها إلى الله علّة الحقيقة ومبدأ القوانين الأزلية، تلك هي الحياة السرمدية التي تجهد النفس في الوصول إليها وندركها بمعرفة ذواتنا من وجهة الأزلية وتأمل النظام الكلي للكون الذي هو عين ذات الله.

المصادر والمرجع

1. اسبينوزا، رسالة في إصلاح العقل، ترجمة: جلال الدين سعيد، دار الجنوب للنشر، تونس، 1990.
2. اسبينوزا، علم الأخلاق، ترجمة: جلال الدين سعيد، ط1، دار الجنوب للنشر، تونس، 1995.
3. برتراند رسل، تاريخ الفلسفة الغربية، الكتاب الثالث الفلسفة الحديثة، ترجمة محمد فتحي الشنيطي، الهيئة المصرية العامة للكتب، القاهرة، 1977.
4. برتراند رسل، حكمة الغرب (الجزء الثالث) الفلسفة الحديثة والمعاصرة، ترجمة فؤاد زكريا، سلسلة عالم المعرفة، الكويت 1983 .
5. بيار فرنسوا مورو، اسبينوزا والإسبينوزية، ترجمة: جورج كتورة، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت، 2008.
6. جوازيا رويس، روح الفلسفة الحديثة، ترجمة :أحمد الأنصاري، مراجعة حسن حنفي، ط 1، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2009.
7. جورج زيناتي، الفلسفة في مسارها، ط1، الأحوال والأزمنة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2002 .
8. جيل دولوز: اسبينوزا ومشكلة التعبير، ترجمة: أنطون حمصي، مراجعة محمد صبح، ط1، أطلس للنشر والتوزيع، دمشق 2004 .
9. ريتشارد شاخت، رواد الفلسفة الحديثة، من ديكارت إلى كانط، ترجمة: أحمد حمدي محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1993.
10. زكي نجيب محمود، قصة الفلسفة الحديثة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1936.
11. فتحي التريكي، رشيدة التريكي، فلسفة الحداثة، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1992.
12. فؤاد زكريا. اسبينوزا، سلسلة الفكر المعاصر، ط2، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، 1981.
13. يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة الحديثة، دار القلم، بيروت ، لبنان، د–ت.

تاريخ ورود البحث إلى مجلة جامعة دمشق 2015/7/13